



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>



Dr. Nidal Essa Greef

Al-Mustansiriya
University / College of
Arts

Email:

Nidal.essa.1975@gmail.com

Keywords:

Divinity, monotheism,
religious history,
sociology.

Article info

Article history:

Received 29.Dec.2021

Accepted 17Feb.2022

Published 28.Feb.2022



History of Monotheistic belief beline

A Sociological Reading of the beginngs of religious Consciousness

A B S T R A C T

The doctrine of monotheism has received great attention from historians who have attached great importance to it, not only on the spiritual and religious level, but also on the relationship of that doctrine to the emergence of human civilizations. Many specialists in various fields of knowledge were at the forefront of whom were sociologists (sociologists) who adopted these historical perceptions and built on them and those who shared the same cognitive concern from anthropologists, which made them as one team seeking to reconstruct the first historical and spiritual incidents that talked about man as a religious being searching In the metaphysics and draw closer to the forces of the unseen.

This study represents an attempt to find out the social reading of those historical facts of the belief in monotheism among human groups, whatever their level of civilization, and then this working paper includes three main axes.

- 1.The beginnings of the doctrine of monotheism in a primitive society.
- 2.Common religious awareness of the doctrine of monotheism.
- 3.Sociological interpretation of the doctrine of monotheism.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol2.Iss47.3027>

تاريخ عقيدة التوحيد

قراءة سوسولوجية لبدايات الوعي الديني

أ.م.د. نضال عيسى كريف

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب

المستخلص:

حظيت عقيدة التوحيد بأهتمام كبير من قبل المؤرخين الذين أولوها أهمية كبيرة ليس على المستوى الروحي والديني فحسب بل لصلة تلك العقيدة بنشأة الحضارات الانسانية، أن هذا الأمر دفعهم إلى وضع نظريات أو تفسيرات لبدايات الوعي الديني الخاصة بعقيدة التوحيد وهذا الأمر اسهم في بلورة مادة معرفية استعان بها الكثير من المتخصصين في حقول معرفية متعددة وكان في طليعتهم علماء الاجتماع (السوسولوجيا) الذين اعتمدوا هذه التصورات التاريخية وبنوا عليها هم ومن شاركهم ذات الهم المعرفي من الانثروبولوجيين مما جعلهم كفريق واحد يسعى إلى إعادة بناء الحوادث التاريخية الروحية الاولى التي تحدثت عن الانسان بوصفه كائناً متديناً يبحث في ما وراء الطبيعة ويتقرب إلى قوى غيبية.

ان هذه الدراسة تمثل محاولة للوقوف على القراءة الاجتماعية لتلك الوقائع التاريخية لعقيدة التوحيد لدى الجماعات الانسانية أياً كان مستواها الحضاري، ومن ثم فإن ورقة العمل هذه تتضمن ثلاث محاور رئيسية سنحاول تحليل التاريخ الديني لعقيدة الإله الواحد وتفسيره اجتماعياً وهذه المحاور هي على النحو الآتي:

١. بدايات عقيدة التوحيد في المجتمع البدائي.

٢. مشتركات الوعي الديني لعقيدة التوحيد.

٣. التفسير السوسولوجي لعقيدة التوحيد.

الكلمات المفتاحية: الألوهية، التوحيد، التاريخ الديني، علم الاجتماع.

المحور الاول: بدايات عقيدة التوحيد في المجتمع البدائي

يطرح عالم الاجناس البشرية ايفار ليسز في كتابه (الانسان والله والسحر) فكرة شاملة تقول: ان اسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود إله واحد ثم انحطوا بالتدرج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها وتحولوا إلى عبادة الآلهة المتعددة (ولسن، ١٩٨٧، ١٥٧) فليسز يزعم أن البشر البدائيين كانوا "موحدين" ويقيم زعمه على أساس من نوع تضحياتهم، فهو يقول ان قبائل التونجيس في هذا العصر يقدمون قربانهم بهذه الطريقة لأن كل تلك وبحيرة روحاً خاصة ومن الممكن لجنة الذبيحة أن تغضب إله البحيرة، وربما هجر الانسان هذا الشكل من أشكال التضحية عن طريق نسيانه حينما بدأ يؤمن بأن هناك آلهاً للغابة، وآلهاً للجبال وآلهاً للمياه أو للبحار، وليسز يفسر حدوث هذا التغيير من خلال النفوذ المتزايد للحسر والسحرة (ولسن، ١٩٨٧، ص١٥٨).

وانطلاقاً من رؤية ليسز سنحاول الوقوف على حقيقة التوحيد لدى الانسان البدائي هل كان في عبادته متجهاً إلى الله مباشرة ام اتخذ وسائل معينة ممكن ان تصله بالله؟ وهل التحول عن الله كمعبود جاء دفعة واحدة ام مر بمراحل قبل وصوله إلى التعددية وفي شتى المعبودات؟.

أن دراسة حقيقة التوحيد لدى الانسان البدائي ترجع اهميتها لذلك الانسان نفسه إذ أن الدراسات الدقيقة للشعوب البدائية قد سلطت الضوء على الطبيعة البشرية أكثر مما فعلت تأملات الفلاسفة أو البحوث المضنية التي يقوم بها العلماء في المختبرات (كلوكهون، ١٩٩٥، ٩٦) فمن الملاحظ ان اديان الشعوب البدائية انما كانت تعبر عن ايمانها بوجود إله،

ففي استراليا تعتقد القبائل الموجودة فيها بوجود كائن اعلى يسكن السماء، وكذلك لدى قبائل افريقيا البدائية، أما أمريكا الشمالية فالههم يأخذ تسميات مختلفة وصفات مختلفة لكنهم بصورة عامة متفقين على وجود إله واحد وأن اختلفوا في كنهه، ولعل الايمان بكائن اعلى واحد غائب عن الانظار هي عقيدة عبرت عنها قبائل أمريكا الجنوبية، وذلك لأعتقادهم بوجود كائن أعلى يسكن فوق النجوم في جنة يجري فيها نهر عظيم (أسود، د.ت، ص٢٦).

أن الحديث المار الذكر انما يشير لنا عن الشيعام العام بين الشعوب البدائية على الايمان بوجود كائن اعلى خفي مجهول الكنه ، وهذا الشيعام من جهة أخرى تقابله آراء تناقضه تماماً، إذ يقول ول ديورنت في كتابه قصة الحضارة: أن بعض الشعوب البدائية -فيما يبدو- ليس لهم ديانة على الاطلاق فبعض قبائل الاقزام في افريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحث يراها المشاهدون، ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة (ديورانت، ١٩٨٨، ص٩٨).

ولقد أشار لوبوك Lubbock إلى الرأي نفسه، إذ وجد أن بعض الجماعات الانسانية الاولى انعدم فيها كل أثر للدين، ففي أمريكا توجد قبائل ليس لديها فكرة عن أي كائن أعلى ولا طقوس للعبادة الدينية، وكذلك تخلو لغة بعض القبائل من أي أسم للإله (علي، ١٩٩٠، ص٣٥).

حقيقة أن عرض وجهتي نظر ديورانت ولوبوك جعلت فكرة وجود دين لدى الشعوب البدائية على المحك أكثر مما جعلت فكرة التوحيد كذلك ولعل فكرة التوحيد وفق الكلام السابق بدأت تحتاج إلى توكيداً ثانوياً ما دام عملية اثبات الدين اصلاً لدى الشعوب البدائية أصبح أولياً وفي المقدمة، ولكن فكرة البحث أصلاً هي متداخلة حول نقطة أو محور مركزي لا حياد عنه، وهو اتجاه الانسان البدائي إلى عبادة إله واحد وبغض النظر عن أسمه وكنهه وطريقة عبادته فما دام هنالك توجه نحو كائن أعلى مقدس فهذا يمثل بالنسبة لنا (إله واحد) ودلالته المراد الوصول إليها هو التوحيد.

أن وجهتي نظر ديورانت ولوك يمكن دحضها من خلال آراء عدد كبير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والفلاسفة، ولعل ديورانت نفسه دحض ما دونته انامله في كتابه (قصة الحضارة) إذ من الواضح بأنه لم يتفق مع المصدر الذي نقل عنه عن انعدام العقيدة الدينية لدى بعض الشعوب البدائية، إذ نراه يقول: ان هذه الحالات نادرة الوقوع، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جمعياً اعتقاداً سليماً، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية فهو لا يكفي ان يعلم عن الديانات كلها انها مليئة باللغو الباطل لأنه معني قبل ذلك بالمشكلة ذاتها، أعني مشكلة العقيدة الدينية من حيث قدم ظهورها ووجودها، من أساس هذه التقوى التي لا يحورها شيء من صدر الانسان (ديورانت، ١٩٨٨، ص٩٩).

ويقول هنري برجسون: لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة من غير دين (دراز، ٢٠٠٧، ص٨٥)، فالإنسان البدائي كان يستشعر وجود قوى خفية قوية مسيطرة على الطبيعة التي تحيط به وتمارس ضغوطها عليه ويرى فيها علاقات خفية تسيطر عليه مما جعله ذلك يؤمن بوجود قوى خفية مسؤولة عن تلك الطبيعة، وهذا تم عبر عمليات تحليلية فكرية من قبل عقله البدائي البسيط، إذ أن العقلية البدائية لا تؤمن بوجود الاسباب الطبيعية أو العلل الثانية، حيث تؤمن فقط بوجود قوى "Forces" أو نفوس "Ames" أو ارواح "Sprits" وهذه هي المصادر الوحيدة التي تفسر الاحداث والوقائع التي تدور في المجتمع البدائي وعلى ذلك تكون العقلية البدائية -كما يقول ليفي بريل- عقلية تؤمن بالعلية الغيبية (اسماعيل، ٢٠٠٩، ص١١٢).

أن الانسان البدائي لم يقف مكتوف الايدي امام الطبيعة التي تشخص أمامه بأسرارها وحركتها وقوتها بل ذهب يبحث عن كشف غموضها مستعيناً بقدرته على التفكير وان كان بسيطاً، ولقد أكد ذلك ما ذهب إليه (بول رادن) في كتابه "الانسان البدائي كفيلسوف" من تدمير للخرافة القائلة ان التحليل التجريدي للتجربة وقف على المجمعات الحديثة المستعملة، فالتفكير والتأمل حول طبيعة العالم وحول مركز الانسان بين المخلوقات والجماد قد حدث في كل حضارة معروفة فلكل مجتمع بشري مجموعة خاصة به من (الآراء البدائية) (كلوكهون، ١٩٩٥، ص٥٣).

ان التأمل والتفكير بالأشياء المحيطة بالإنسان البدائي قادتته إلى خلق العقيدة الدينية وتسليمه بوجود قوى خفية مسيطرة أصبح لا مخلص من الهروب عنه وذلك لعدة عوامل، سنجد ديورانت يوضحها لنا، "أن الخوف من الموت أو الشعور بالدهشة لما تسببه الحوادث التي تأتي مصادفة أو الاحداث التي ليس في مقدور الانسان فهمها، ومنها الامل في معونة الالهة والشكر على ما يصيب الانسان من حظ سعيد، ولقد كان أهم ما تعقلت به دهشة البدائيين وما استوقف انظارهم بسرهم العجيب هما الجنس والاحلام. ثم الاثر الغريب الذي تحدثه اجرام السماء في الارض والانسان" (ديورانت، ١٩٨٨، ص ١٠٠). لقد قادهم التسليم بقوى خفية إلى جعل كل الحوادث والتغيرات التي تجري لهم منوطة بتلك القوى، إذ يقول ليفي بريل: ان البدائي لا يؤمن بالمصادفة *Hasard* فمثلاً هو لا يؤمن بالموت الذي يحدث مصادفة أو عرضاً، حيث ان المرض بذاته أو طعنة الرمح بذاتها ليست جميعها هي أسباب للموت الطبيعي ولكنها مجرد "أدوات" أو "آلات" تستخدمها القوى الغيبية الخفية (اسماعيل، ٢٠٠٩، ص ١١٢).

وعلى الرغم من وجود الايمان والتسليم بتلك القوى الخفية لدى الشعوب البدائية إلا انهم يجهلون كنهها وحقيقتها، إذ يرى العالم الانثروبولوجي كامس *Kams* أن البدائيين مهما تكن درجة تمدنهم لديهم انطباع ما بوجود قوى خفية التي ينظر الانسان البدائي اليها متعددة وكثيرة، ولعل مفردة "قوى" جاءت نتيجة إيمانه بقدسية وقوة كثير من الاشياء الطبيعية المحيطة به، فهو لم يستطع أن يفهم بأن تلك القوى جميعها مصدر واحد وقوة واحدة، ولعل احتياجه لكل الاشياء الطبيعية جعله يؤمن بأن كل واحدة منها إلهاً له دوره وفائدته المرجوة ولعل تعدد الآلهة وكما يفسره كولن ولسن مردود إلى الفعل الاجتماعي المتعدد الاتجاهات، إذ يرى بأن الانسان يزداد احتياجه للمزيد من الارياب كلما زاد في توسيع نشاطاته، فحينما كان في الملاحة عبر البحار احتاج لأن يقدم التضحيات لإله البحر وحينما شرع في الخروج إلى سفر أو رحلة احتاج لأن يشعر بأنه أصبح تحت حماية رب المسافرين وما إلى ذلك، لقد احتاج كل نوع جديد من أنواع العمل إلى إله جديد (ولسن، ١٩٨٧، ص ١٦٥).

ولا يقف الامر عند توسع النشاطات البشرية لدى الانسان البدائي وما تبعه من توسع مفردة القوة إلى القوى المختلفة بل ان الامر ينطوي على رؤية غيبية اعمق من الرؤية الواقعية "الاحتياج إلى الاقوى للنصر" ففي رأي الانسان البدائي أن الجبال والانهار والصخور والاشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئية للنفوس الباطنية الخفية، وكذلك الحال مع اليونان الاقدمين إذ جعلوا السماء هي الإله (أورنوس) والقمر هو الاله (سليين) والارض هي الآلهة (جي) والبحر هو الإله (بوزيدن)، وأما الإله (يان) ففي كل ارجاء الغابات في وقت واحد (ديورانت، ١٩٨٨، ص ١٠١).

أن تقديس تلك الاشكال الطبيعية المختلفة انما ينطوي على بعداً أعمق يتجاوز (حدود المحسوس) لتلك الآلهة، عابراً إلى القوة الغيبية المبهمة لديهم والتي لا يستطيعون تصويرها كتجسيم حسي، فلهذا نراهم يعبرون عنها بتلك الاشكال ولقد فسّر الدكتور زكي محمد اسماعيل التجاء بعض الديانات إلى الاصنام والمحسوسات أو نحو ذلك بما زعمه عبادها بأن لها قوة غيبية تهبط عليها أو ان بها رمزاً لسر غامض هو الذي يستوجب التقديس، وبذا تعد كتمائم أو تعاويذ يتفعل أو يتبرك بها (اسماعيل، ٢٠٠٩، ص ٣٩).

ولأجل توضيح الفكرة السابقة اعلاه بشكل ينقلنا إلى سبب التوحيد العقائدي بالايمان بالقوى الغيبية لدى البدائيين يمكننا الاستناد إلى احد الاتجاهات التي تسود عموم الكتابات الانثروبولوجية والمعروف بأسم "التفسيرات السيكولوجية العقلية" ففي هذا الاتجاه يتساءل العالم الانثروبولوجي عن الخطوات الذهنية التي كانت كفيلاً بأن تصل به هو إلى اعتناق تلك العقائد البدائية، لو أنه هو نفسه كان رجلاً بدائياً يعيش في ذلك المجتمع ويخضع لنفس الظروف والعوامل التي يخضع لها الرجل البدائي نفسه، ولذا جاءت هذه التفسيرات الاولى للدين ونشأته كتغيرات عقلية *Intellectual* خاصة، فتاليور مثلاً يذهب إلى أن الدين نشأ حين حاول الانسان الاول أن يجد تبريراً عقلياً لبعض الظواهر الطبيعية كالموت

والنوم والرؤى والاحلام، فأفترض وجود نفس مستقلة تمام الاستقلال عن الجسم ثم بدأ بعد توصله إلى فكرة النفس يتصور ان الحيوانات والنباتات بل وحتى الاشياء التي تعتبر غير حية وجامدة في نظرنا نحن تمتلك هي أيضاً نفوساً (أرواحاً) وكان من السهل عليه بعد ذلك ان يتصور وجود كائنات قوية هي عبارة عن نفوس خالصة وهو ما يطلق عليه اسم الآلهة والارواح والشياطين التي يقوم عليها التفكير الديني (أبو زيد، ١٩٧٨، ص ٧٧). من الواضح ان الجهل بالظواهر الطبيعية وكما يفسره تايلر كان دافعاً قوياً لدى الانسان البدائي إلى تصور وجود قوى مجهولة يجب الايمان بها والتضرع نحوها لدفع الشر وجلب الخير.

المحور الثاني/ مشتركات الوعي الديني وعقيدة التوحيد

لقد وجدت مجموعة ميول مشتركة بين جميع الناس في كافة العصور والامكنة ولم تتأثر هذه الميول المشتركة بجميع الاختلافات والتناقضات في العادات والتقاليد والمناخ والجغرافيا والانظمة السياسية والفكرية والتيارات الثقافية، تلك الميول متمثلة بالايمان بالآله الخالق المسؤول عن الكون.

في ضوء تلك الميول المشتركة نحو التوجه إلى ذلك الآله بغض النظر عن أسمه أو كنهه أو صفاته نطرح السؤال الآتي: كيف اتفقت الشعوب البدائية والمتحضرة على وجود ذلك الإله؟ أو بصيغة أخرى كيف اتفقت عقول السذج - الفقراء - الاغنياء - الحاكمين والمحكومين - الفلاسفة... الخ على وجود إله خالق للكون؟

أن افراد الجنس البشري جميعاً يشتركون في مجموعة أفكار محورية تجعل استجاباتهم للوجود متماثلة بصورة نسبية كما يؤكد (باستيان)، ويذهب "روبرت لوي" إلى ان ثمة وحدة نفسية للشعوب، وأن هذه الوحدة النفسية تدفع المجتمعات الانسانية دوماً نحو تكرار أفكارها، نحن، هنا، أمام ثوابت معرفية تشكل الطبيعة الأصلية للوجود الإنسان في أحد قطبيها... هذا القطب بعينه يمثل الحيز المشترك في الوعي بين الانسان والمطلق، أي يمثل ما هو إلهي في الانسان (منير، ٢٠١٧، ص ١٢٠)

لعل المراد بالحيز المشترك في الوعي بين الانسان والمطلق يتمثل في رغبة كل منهما في الاخر الاول باحثاً ومهتدياً والاخر مجنوناً وهادياً والمحصلة للأول، أما كون ذلك ما هو إلهي في الانسان فهو الرغبة بالتخلص من الضعف والخوف ليكون قوة لطاعة القوة الالهية، وهذا ما تمثله الفكرة المحورية والتي تتردد عبر العصور وتسعى إلى بلورة ذاتها، هذه الفكرة هي "الوجود لما قبلي لإله عظيم يستحق التمجيد هو مصدر كل شيء وهو القوة المفارقة واللامفارقة في آن، الفاعلية بالكلمة، والأبدية الحضور" وهذه الأبعاد الاربعة الأساسية: المقابلية، وأهلية التمجيد، وقوة الفعل وإرادته، والديمومة، تُمثل في الوحدة النفسية للبشر النزوع إلى التعرف على المطلق، والاتصال به، وتعويض النقص والضعف الإنسانيين من خلاله" (منير، ٢٠١٧، ص ١٢٠).

أن تجاوز الضعف والنقص لدى الانسان البدائي كان نقطة مركزية وجوهية تدار حولها نشاطاته الانسانية والحياتية، ووجد بأن التوجه إلى قوى خفية مطلقة يمكن له مجاوزة الشعور بالضعف والنقص، ولعل تفسير نشوء الدين في المجتمعات البدائية لم يفهم بشكل واضح عبر الاتجاه الانثروبولوجي الذي مر ذكره إلا وهو "التفسيرات السيكولوجية العقلية"، فلماذا لا يمكن لنا فهم الاتجاه نحو إله لدى الشعوب الانسانية كافة (أي وحدة نفسية متشابهة) إلا عبر التفسيرات السيكولوجية الانفعالية (الاتجاه الثاني في الكتابات الانثروبولوجية)، فوفقاً لهذا الاتجاه فأن محاولة العالم الانثروبولوجي لا تبني على أساس كيف يفكر بأعتبار نفسه بدائياً ولكن أصبح يتساءل بالأحرى كما كان عساه ان يشعر (أبو زيد، ١٩٨٧، ص ٧٨)، إذ ان من الواضح ان الشعور هو شكل انساني يمكن له ان يتشابه بين الشعوب كافة، فضلاً عن أن الانثروبولوجيون يعتقدون بأن بعض الموضوعات توجد في كثير من الحضارات المعقدة رغم اختلافها، كذلك فهم يصرون على أن هناك مبادئ معروفة، أو يمكن معرفتها للسلوك البشري تتصف بأنها ذات طبيعة عالمية عامة، فالمجتمعات

الانسانية كلها، من (أكثرها بدائية) إلى (أكثرها تقدماً) تكوّن استمراراً أو سلسلة متصلة الحلقات (كلوكهون، ١٩٩٥، ص٤٩٦).

أن ذلك الشعور العالمي والموضوع المشترك بين الحضارات في آنٍ واحد، انما يمثله الايمان بإله خالق يتم عبره تجاوز الخوف والنقص والضعف الإنساني، فضلاً عن كونه يمثل "الواحد" كموضوع حضاري منتشر بين البدائيين والمتحضرين.

نقرأ من (كتاب التاو) الذي يحوي الحكمة الصينية المقدسة ما يلي: - على نحو غامض تكوّن وتشكّل، ووُجد قبل السماء والارض، يقف ثابتاً لا يتغير أمام الصمت والفراغ حاضراً أبداً، ودائم الحركة، وربما يكون هو أم العشرة آلاف شيء، أنا لا أعرف له أسماء، فلنسمه (التاو) ولأننا لا نملك كلمات أفضل، فإنني أطلق عليه وصف عظيم. ولأنه عظيم فهو يسبح... يسبح بعيداً جداً... وعندما يصبح في كل الابعاد... فإنه يرجع من جديد (منير، ٢٠٠٧، ص١١٩-١٢٠)

لقد حددنا في بدايات بحثنا هذا أن لا مشكلة لأسم الإله "الله...تاو...الخ" إنما قد تكون المشكلة بأعتقادنا عندما يدخل (الاسم) ليدل على أشياء غير متفقاً عليها من جهة أو تعني تصوراً مشوشاً حول (الواحد)، من قبيل ذلك بعض القبائل البدائية التي تستعمل كلمة (الله) لتعني بها "السماء" ولفظ الله عند "اللوبياري" و"الدنكا" معناها المطر، كذلك كانت السماء عند المنغوليين هي الإله الاعظم، وكذلك الحال في الصين، وفي الهند الفيدية أيضاً، معنى كلمة الله هو "السماء الوالدة" والله عند اليونان هو زيوس أو السماء "مرغمة السحاب"، وهو "أهورا" عند الفرس، أي السماء الزرقاء (ديورانت، ١٩٨٨، ١٠٤).

ولعل التوجه نحو السماء انما يرمز إلى التوجه نحو الغيب وذلك لما تمثله السماء من شكل مغلق غير معلوم ما خلفه وأن المطر يمثل رسالة أو حركة سماوية حددت هوية السماء بالنسبة للبدائي فهي خير (مطر) وهي خوف (رعد وبرق) وهي سميت بالوالدة لأنها منزلة المطر (أي مخرجة) ولأن الافلاك وخصوصاً الشمس والقمر تحتظنهما السماء ولعل البدائيين يعتقدون بأن الشمس والقمر هم أولاد السماء، ولعل الفكرة القرآنية حول أهمية السماء واحتضانها لفلك تمثل للمسلم اليد القابضة بأمر الله (الواحد).

ونعتقد أن السماء هي أقرب تصور لكنه الإله وحقيقته لدى الانسان البدائي، أما بالنسبة للمتحضر (المسلم) فإنه تمثل فيض الله (الواحد) وتمثل (بوابة الغيب) ولعل البدائيين الذين آمنوا بألوهية السماء كانوا أكثر ذكاء من غيرهم في اعتقاداتهم الدينية.

أن ترميز المقدس الخفي (الإله) صفة متفكّة بين عقائد الامم والشعوب، والترميز بحد ذاته يكشف لنا عن الآتي:

- ١- نقل غير المرئي (بالمرئي) كالأصنام والأشجار والبحار والطيور..والنار..الخ.
- ٢- قدسية المنقول إليه، فليس الشجر غير مقدس، بل هو يحمل قداسة بحد ذاته لدى بعض الشعوب مثلاً، فيمكن ان يرمز للقدسية المطلقة.

- ٣- أن الرمز المقدس عن (الإله) مرتبط بطقوس عبادية تنسجم وطبيعة ذلك الرمز وُلفشجرة قيمة خاصة في المجتمع البدائي والزراعي، والطبيعة تكون مثقلة بقيمة أسطورية* أو دينية، فالطبيعة أسطورياً، ليست هذه الطبيعة العادية بل هي اكثر من ذلك، والشجرة ليست شجرة عادية فحسب، أنها شجرة الكون شجرة القداسة التي ترمز تارةً إلى الحياة وتارةً إلى الحكمة والخلود، والشجرة مقدسة في الاسطورة، لأنها تجسد التجربة الدائمة لتجدد العالم وانبعائه" (خليل، ٢٠٠٣، ص٥٥).

لأجل الزيادة في الايضاح نعرض على تصورات ابن الفارض الشاعر الصوفي المعروف في تأنيته، إذ يقول:

وأن خز للأحجار في البدء عاكف
فلا وجه للإنكار بالعصبية
وان عبد النار المجوس وما انطفت
كما جاء في الاخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم
سواي وان لم يظهروا عقد نية

أن مراد تلك الابيات واضح، إذ أن كل عابد للصنم أو للنار انما قصدوا الله (الواحد) وأن لم يعتقدوا نواياهم على ذلك، ومن المدهش حقاً أن نعلم بأن المجوس تعظم النار لمعان... منها:

١- أنها جوهر شرف علوي ٢- وأنها لم تحرق (إبراهيم؟!) وكانت عليه برداً وسلاماً ٣- وان تعظيمها ينجيهم من عذابها يوم الميعاد؟ (اسود، دت، ص ٣٩).

وإذا انتقلنا إلى رمزية (الواحد) لدى المصريين نجد أن اول ما استرعى نظرهم هو أن الشمس وظهورها على شكل ذلك القرص الاحمر المتوهج وشروقها وغروبها بانتظام دقيق تمثل عظمة الاله (خالق كل شيء الذي عرف بأسماء عديدة منه الإله "رع") الذي يمثل شمس الظهر، فعبد أهل مصر هذا الاله في الشمال والجنوب على السواء، وقد صوروا هذا الله الخالق على اشكال مختلفة ومن هذه الاشكال (الاله) على هيئة الصقر أو هيئة انسان برأس الصقر، ولما كانوا قد صوروا إله الشمس على شكل آدمي فقد جعلوا له قارباً جميلاً صنع من الذهب طوله (٧٧٠) قدماً، وكانت الالهة الأخرى تصاحب إله الشمس فيه، وقد وصف هذا الاله (بالإله العظيم رب السماء الذي يحكم العالم من قاربه... ولا غرابية فهو سيد الالهة أجمعين) (سوسة، ١٩٨١، ص ٣٨٨)

وما يلفت الانتباه تلك التسبيحات التي تسبحُ بإسم "رع" والتي تشير إلى خلقه الكون وما عليه وتشير إلى عظيمته ولعل ما يلفت الانتباه ذلك التسبيح الذي يقول : (أنت أوحده... أنت شرق في هيئة الشمس الحية عندما تظهر وتتألق وتستبعد ثم يعود وأنت تخلق ملايين الكائنات منك وحدك) (سوسة، ١٩٨١، ٣٩٥) ولعل أوضح التسبيحات أو الترنيمات في المديح الفرعوني إلى الإله "رع" نقرأ (من كتاب الموتى): أيتها المادة المقدسة التي أنت منها إلى الوجود كل اشكال الحياة... لقد بعثت الكلمة والارض غمرها الصمت، أيها الواحد الوحيد الذي عاش في السماء قبل البدء قبل أن تضع الارض والجبال... أيها العداء...

أيها الرب الواحد الوحيد... صانع الاشياء الكائنة... صانع السنة هيئة الالهة (يا من جعلت صحبة الالهة ينطقون بلسان واحد) (منير، ٢٠١٧، ١١٩)

أن الاتجاه إلى الخالق بالطاعة والانصياع لا تقف عند التعبد بترنيمات أو تسبيحات بل يتجاوز ذلك ومستنداً عليه في الوقت نفسه إلى التوحد مع الواحد، أن المصريين لا يقرون ل(رع) إلهيته فقط مقارنةً ببقية الآلهة بل يعلنون انه سيدهم أجمعين، بل يعلنون انه الواحد الوحيد، لعل توحيدهم الظاهري هذا، صورة من صور الانتقال على التعددية التي لا تتلائم وتصوراتهم عن الإله العظيم الخالق، فكأنما واحديته وأحديته بالنسبة ل"رع" تمثل عدم التشتت العبودي وعدم التشتت في الدعاء (الترنيمات) أو في الاستعانة ب(الواحد).

ولعل في تراث العرب في عصر الجاهلية إشارات إلى الترميز عن الإله وإشارات إلى التوحد معه، يقول المسعودي: وكان من العرب من أقر بالخالق، وأثبت حدوث العالم وافر بالبعث والاعادة، وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الاصنام "الرمز"، وهم الذين حكى الله عز وجل عنهم بقولهم (ما نعبد هم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الاصنام وقصدوها، ونحورا لها البدن، ونسكوا لها النسائك. (المسعودي، ٢٠١٢، ص ٣١٠)

تبعاً لما جاء تتضح لنا أن ثمة وعي مشترك بين الجماعات والشعوب بفكرة التوحيد وهذا الأمر هو غاية ما نريد توضيحه وإثباته.

المحور الثالث/ التفسير السوسولوجي لعقيدة التوحيد

يعد الدين من أهم النظم الانسانية المكونة للنظام الاجتماعي سواء في المجتمعات القديمة أم المتحضرة، فالدين ظاهرة إنسانية محضة لذا فقد حظيت مسألة الإله الواحد/ التوحيد والتعددية/ تعدد الإلهة بإهتمام الكثير من المختصين والباحثين في مجال السوسولوجيا الدينية وأنثروبولوجيا الدين.

ان تحديد كون الشكل الاولي أو البدائي للدين كان يتجه نحو التوحيد أو التعددية أمر يختلف عليه الكثيرون ولاسيما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إذ اختلفوا في الاتفاق على أصل الدين، هل هو توحدي أم تعددي أم غير ذلك وهذا يعود إلى طبيعة الاتجاه الثقافي الذي ينتمي إليه الباحثون وتوجههم العلمي والمعرفي. أن أشهر من كتب في هذا الشأن هو ماكس مولر Max Muller إذ أكد أن أصل الأديان وأقدمها جاء من عبادة الطبيعة - كعبادة الشمس أو العواصف- وبين أن هذا الدين بدأ بعبادة آلهة متعددة ثم اتجه بصورة تدريجية نحو التوحيد وعبادة إله واحد (القصير، ١٩٨١، ص٤٢٨). في حين ارتأى اوكست كونت Auguste Comte أن تشكيل الدين أولاً كان بصورة الديانة الفيتيشية/ الوثنية، إذ تولد جميع الأشياء كالأشجار والحصى والمنابع بأن تنسب لها قوى غيبية، ثم مهدت - عبادة النجوم - التي تعد حلقة متوسطة لقيام ثورة دينية انتقلت بالإنسانية من عبادة الأصنام إلى القول بتعدد الآلهة، ويرى كونت أن هذا الانتقال كان ثورة لا مجرد تطور، ثم أدى كل من تقدم الملاحظة والرغبة إلى تفسير وحيد للعالم إلى ظهور التوحيد (باستيد، دت، ص١١٥). وتبعاً لذلك تكون فكرة التوحيد والاعتقاد بالوحدانية قد جاءت متأخرة بالنسبة إلى المعتقدات الدينية الأخرى عند هؤلاء السوسولوجيين.

أما دوركايم Emile Durkheim فقد سلك طريقاً مختلف للكشف عن حقيقة الشكل الأول للدين بصيغة أكثر بدائية وبساطة ذلك أنه عد الأديان الطوطمية بمثابة الجهاز الأكثر بساطة والذي يمكن انطلاقاً منه الكشف عن منطق الأنساق الدينية الأشد تركيباً، إذ كانت الديانة الطوطمية تطابق الصيغة الأولى زمنياً للتنظيم الديني، وقد ذهب كل من مكلنان وفريزر إلى ما ذهب إليه دوركايم من عد الطوطمية الحلقة الأولى في سلسلة التطور الديني (هيرفيوليجيه، ٢٠١٨، ص٢٤٨)، وأنها الشكل الأول للحياة الدينية في المجتمعات القديمة وبشكل عام فإن دوركايم لم يهتم بأصل الدين كاهتمامه بوظائف الدين في المجتمع (النوري، ١٩٧٠، ص٢١١). وهناك رأي آخر مفاده أن وحدة الإله هي ليست من اكتشاف التوحيدية وإنما كانت قبل ذلك موضوعاً مركزياً للأديان المتعددة الآلهة وهذه الفرضية جاء بها رالف كودروث في القرن ١٧ مستنداً إلى نصوص مئات الترجمات الإلهية (اسمان، ٢٠٠٦، ص٤٣). ومن ناحية أخرى رفض لانج (Lang) المذهب السابق للكثير من السوسولوجيين في تفسير نشوء الدين (وأصله) المستند على أساس فكرة التطور من التعدد إلى التوحيد مشيراً إلى أنها تتناقض مع عقيدة (الوحي البدائي) فالإنسانية بالنسبة له تطورت وانتهت إلى التوحيد.

بمعنى أن الديانة الأولى كانت تؤمن بالإله الواحد إذ إن فكرة الإله الأعلى الأوحد فطرية ومغروسة في عقل الإنسان إذ إن الإنسان يعتقد أن لكل شيء سبباً ولكل مخلوق خالقاً فإن هناك إلهاً غير الإنسان هو الذي خلق العالم وهو يمثل قوة غير طبيعية عليا قادرة على الخير والشر وبمرور الزمن وبعمل الخطيئة البشرية أخفيت حقيقة التوحيد فظهرت فكرة تعدد الآلهة وبقيت هذه الحالة إلى أن عادت فكرة التوحيد وظهرت في الأديان السماوية السامية (القصير، ١٩٨١، ص٤٣٣). وقد اتفق مع لانج بعض الباحثين منهم Leopold Schroder إذ توصل هذا الباحث إلى وجود فكرة الإله الأسمى عند الآريين، وكذلك كروبر A.L. Krober الذي أجرى أبحاثاً متعددة عن هنود كاليفورنيا، أثبت فيها وجود فكرة إله خير أسمى، وأكد بأن هؤلاء الهنود عرفوا فكرة الخلق بواسطة موجود سام بيده كل القوى وينسب إليه كل القدر (النشار، ١٩٤٩، ص١٩٤). كما قام ديكسون Dixon عند دراسته لقبيلة Maidu بإثبات هذه الفكرة أيضاً وهو وجود إله سام عام خالق وفكرة الخلق عندهم تشبه فكرة التوراة، وكذلك أثبت علماء الأجناس في أمريكا وجود إله خالق عند البدائيين (النشار، ١٩٥٠، ص٤٩/١٩).

إن مجمل هذه البحوث أثبتت بشكل واضح أسبقية فكرة الإله المتسامي الخالق وبالوقت نفسه تعطينا تصور للعلاقة الواضحة بين الفطرة والاعتقاد بإله واحد. وفي السياق نفسه نجد (الأب شميت) وهو من أبرز ممثلي نظرية التوحيد البدائي يؤكد الفكرة القائلة بوجود إله أكبر وخالق أعظم يفصل بين الخير والشر كعقيدة انتشرت بالحضارات البدائية وهي الإيمان بوجود أعظم، إذ يقول: إن هذه الحضارات تحيط أولاً بالنصف الجنوبي للعالم القديم إحاطة السور بالمعصم ذلك السور الذي امتد إلى العالم الجديد، وتدل العزلة الراهنة لهذه الحضارات في الجزر وفي أقصى القارات وفي أعماق السلاسل الجبلية وفي داخل الغابات على أنها قد انتشرت فيما مضى على نحو أشد ما يكون كثافة واتصالاً.... وإن الإيمان بوجود إله أعظم قد ظهر في كل مكان وبأن هذا الإيمان يعد جزءاً جوهرياً في أقدم الحضارات الإنسانية (باستيد، د.ت، ص ٢٣٠-٢٣١). ويعتقد شمت أن التدهور الذي أصاب النظم الدينية كان سبباً إلى التحول من فكرة الإله الواحد إلى فكرة عبادة الأرواح والأشباح والنباتات والحيوانات وتعدد الآلهة (النوري، ١٩٧٠، ص ٢١٢)

وعلى الرغم من أن بعض علماء الاجتماع يرفضون فكرة (التوحيد البدائي) وذلك تبعاً لتمييزهم بين ما يتعلق بإله أعظم وإله لا شريك له (باستيد، د.ت، ص ٢٣١)، إلا أنه يجب ألا يفوتنا هنا أن فكرة الإله الأعظم تدل في معناها ورمزياتها على فكرة التوحيد ضمناً ولاسيما أنها تحمل في طياتها فكرة التفريد والتمييز والتي قد تقود نحو الوحدانية المنافية للشراكة في معناها ومضمونها ورمزياتها.

ولعل هذا الأمر يتوافق مع ما طرحه خزعل الماجدي حول مرحلة التفريد والحلقة المفقودة التي تجمع بين أديان التعدد وأديان التوحيد، إذ يرى أن منطقة الشرق الأدنى كانت غارقة في الأديان المتعددة الآلهة التي نشأت وتطورت منذ زمن بعيد فكل دين يتكون من آلهة بعضها أكثر أهمية وتداولاً من الآخر وبعضها ارتقى إلى مرحلة التفريد التي هي من التوحيد إذ يبرز إله رئيسي يصبح مركز المنظومة الإلهية وتدور حوله بقية الآلهة، وقد ظهرت محاولات توحيدية هنا وهناك مثل محاولة أخناتون في مصر ونبونائيوخي في بابل وزرادشت في فارس لكنها لم تتحول إلى نظام شامل أو عالمي أو حتى إقليمي (الماجدي، ٢٠١٤، ص ١٢).

ووفقاً لما جاء آنفاً نفهم أن هناك ثمة فكرة أساسية مفادها أن هناك مرحلة حاسمة تم فيها التحول الكبير من الأديان المتعددة الآلهة إلى الأديان الموحدة وأن هذا تم بفعل وتأثير الحلقة المفقودة والتي مثلتها التيارات الدينية الغنوصية (العرفانية) أو ما يسمى بـ التوحيد الباطني العرفاني الذي كان السبب الأول والرئيسي لانبثاق الديانة التوحيدية ومن ثم حضورها في التوحيد العالمية (اليهودية، المسيحية، الإسلام). إلا أن هذه الحلقة المفقودة التي بدأت بالتوحيد الباطني العرفاني الخالي من الوحي تحملت الاصطدام مع كتلتين كبيرتين هما: ١- كتلة الماضي الصلد للأديان التعددية. ٢- كتلة الأديان ذات التوحيد الظاهري الناشئة حديثاً والمؤمنة بالوحي. (الماجدي، ٢٠١٤، ص ١٣٩).

إذ إن ثمة صراعاً حدث فيما بعد بين التوحيد الباطني والعرفاني والتوحيدي الظاهري المتمثل بالأديان التوحيدية/الرمسية/ غير العرفانية انتهى بقتل التوحيد الباطني العرفاني لصالح التوحيد الظاهري. وبذلك نتوصل إلى فكرة مفادها أن ظهور التوحيد الباطني العرفاني قد سبق التوحيد السماوي أو الإلهي.

وتتضح بعض ملامح هذه الفكرة فيما ذهب إليه دي كولانج في كتابه "المدينة القديمة" (باستيد، د.ت، ص ١٧٤)، فضلاً عن عالم الأجناس البشرية أيفار لسندر إذ إننا نجد "فكرة التوحيد" مثلت الشكل الأولي لدين البشرية ولكن السحرة الذين طالبوا بقرابين للشياطين كانوا سبباً في انحراف البشرية نحو التعددية والوثنية، ذلك أن الإنسانية منذ بدايتها كونت فكرة عن وجود الإله الواحد تمثل بما أسماه بعض علماء الاجتماع بـ "التوحيد البدائي" (باستيد، د.ت، ص ٢٢٦).

وبناءً على ما جاء يتضح لنا أن هناك احتمالاً وإمكانية في أن يكون الشكل الأولي للاعتقاد الديني في الأصل كان مبنياً على فكرة التوحيد بغض النظر عن ماهية وشكل هذا الدين التوحيدي، على الرغم من أن هناك كثيراً من السوسولوجيين من عارضوا هذه الفكرة (باستيد، د.ت، ص ٢٢٧).

إن احتمالية وجود الديانة التوحيدية أو التوحيد البدائي الذي عرفته الشعوب والمجتمعات القديمة يخدم توجه بحثنا الحالي من حيث تأكيد أصل وأساس منشأ الاعتقاد الإيماني التوحيدي لكونه أرجح التفكير الاجتماعي إلى مرحله التأسيسية الأولى للعبادة والتي هي بطبيعة الحال دين الفطرة والإنسانية، وهكذا تكون عقيدة التوحيد أو الإله الأعلى والأسمى عقيدة قديمة قدم الانسانية ذاتها تبعاً لما طرحه بعض الباحثين والعلماء وحاولوا اثباته والدفاع عنه.

المصادر

١. خليل، احمد خليل (الدكتور)، د.ت، مضمون الاسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت.
٢. أسود، عبد الرزاق محمد (العميد)، د.ت، المدخل إلى دراسة الاديان والمذاهب، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان.
٣. اسماعيل، قباري محمد (١٩٩٩)، علم الاجتماع الفرنسي، دار الكتب الجامعية، مصر.
٤. أبو زيد، أحمد (الدكتور)، ١٩٨٧، محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان.
٥. ديورانت، ول، قصة الحضارة (١٩٨٨)، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت-لبنان.
٦. ولسن، كولن، (١٩٨٧):الانسان وقواه الخفية، ت: سامي خشبة، دار الأداب، بيروت-لبنان.
٧. علي، حيدر ابراهيم (١٩٩٠)، الدين في المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان.
٨. كلوكهون، كلايد، (١٩٩٥)، الانسان في المرأة، علامة الانثروبولوجيا في الحياة المعاصرة، ت: شاكرا مصطفى سليم، العرب للدراسات والنشر، بيروت-لبنان.
٩. سوسة، أحمد (١٩٨١)، مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الرشيد للطباعة، العراق.
١٠. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (٢٠١٢)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعداد ومراجعة كمال حسن مرعي، المجلد الرابع.
١١. دراز، محمد عبد الله (٢٠٠٧)، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان، دار القلم، الكويت.
١٢. منير، وليد (الدكتور)، (١٩٩٧)، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، لبنان.
١٣. قيس النوري، (الدكتور)، (٢٠٢٠)، دراسة في الطبيعة البشرية، دار الرؤيا.
١٤. القصير، مليحة عوني (الدكتورة)، ١٩٨١، مبادئ علم الاجتماع.
١٥. اسمان، يان (٢٠٠٧)، التمييز الموسوعي أو ثمن التوحيدية، ت: حسام الحيدري، منشورات الجمل، بيروت.
١٦. النشار، سامي (١٩٨٩)، نشأة الدين النظريات التطورية والمؤهلة، دار النشر والثقافة، الاسكندرية.
١٧. الماجدي، خزعل (٢٠١٤)، كشف الحلقة المفقودة بين اديان التعدد والتوحيد، المركز الثقافية العربي، الدار البيضاء، المغرب.
١٨. باستيد، وجيه، د.ت، مبادئ علم الاجتماع الديني، ت: محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية.

* أننا لا نتفق مع تصورات د. خليل احمد خليل التي يسحبها من الشعوب البدائية وأن العقيدة الكافرة والمشاركة إلى الشعب الاسلامي، متخذاً القرآن والسنة هزواً وسلماً لسحب أفكاره حول الاساطير.